ماذا رأى باسيل

قصة رمزية

لماري ملكة رومانيا

[ولدت ماري ملكة رومانيا سنة ١٨٧٥ . وهي انكليزية الاصل من الاسرة المالكة في انكلترة . ولما كانت ابنة سبع عشرة سنة — وقيل خمس عشرة — زوّجها فرديناند ملك رومانيا الذي توفي في الصيف الماضي . وقد كانت ولا تزال الى الآن في طليعة الملكات اللواتي خُلقن ليسُدْنَ النفوس ويتبوّأن عروش القلوب. جاءت الى بخارست، عاصمة رومانيا ، غريبة الدار والوجه واللسان ، لا تعرف احداً فيها ولا تدري شيئاً عن اخلاق الرومانيين وعاداتهم وسائر احوالهم الاجتماعية. ولكنها لم تلبث ان نشطت الى التطلّع من معرفة هذه الامور كلها . فتفرّغت لاستقراء شؤون الامة الرومانية خاصّتها وعامّتها واوغلت في تقصّي مسائلها الاقتصادية والاجتماعية ووقفت حياتها على خدمة الشعب دائبة في عيادة المرضى وتعزية الحزانى والتصدّق على الفقراء والمساكين وغير ذلك من الاعمال التي اعلت مكانتها في النفوس وجمعت القلوب على محبتها واحترامها . وهي معروفة عند اكثر القراء بكونها من ربّات البراعة في فنّ البراعة . وجميع القصص التي كتبتها تشهد لها بغزارة المادّة وسعة الاطلاع ورقة الشعور وسموّ الخيال ومنها القصة الآتية :]

القصة

كان الوقت ليلاً . وقد ارخى الظلام سدوله على السهل الفسيح الارجاء وهبّت ريحٌ صرصرٌ عاتية . فقرس البرد واضطربت النجوم ووهن نورها كانها تحاول الابتعاد من الارض لتتّقي صبارّة البرد ونفح الزمهرير . ولكن الثلوج المتراكمة في الحقول كان بياضها شديد النصوع فانعكس منهُ ضياءٌ ضئيل لطّف كثافة الظلام . وكانت الريح تعصف وتلطم وجه الجلد بعنف فتحرّك سكونهُ وتثيرهُ سحاً رقيقة ترتفع في الجوّ كانها تروم الإفلات من قبضة الريح والنجاة من إعنائها

وكان الطريق العامّ ، في وسط ذلك السهل، يبين للناظر خطّاً قاتماً رسمتهُ الخطى على الثلج. وعلى جانب هذا الطريق جلس سريةٌ من الجند حول نار صائرة الى الخمود

والانطفاء يتهددون للريح وهي تثير الثلج وتسفيه في وجوههم فيسقط عليهم بشدة وعنف سقوط الامواج المزبدة على الصخور وقد رفعوا اطواق معاطفهم المريضة وبسطوها على رؤوسهم الى جباههم . ولكن هذا كلهُ لم يجدهم نفيلا في وقاية اجسادهم قرس القرّ ولذع الزمهرير . وكانوا اثني عشر جندياً منهم اربعة كهول ذوو لحى كثة طويلة وواحد في ريعان الصبا وهم يتولون حراسة بضعة اسرى جالسين امام النار الآخذة في الهمود وعلى وجوههم امارات الكآبة والغمّ . واجسادهم ترتجّ مرتعدة من البرد او الحزن او الخوف — ولعل ارتعادها كان ناشئاً عن هذه كلها !

لم يحفل حرّاسهم بهم بل كانوا موجهين التفاتهم نحو رفيقهم الفتى الذي وقف مستنداً الى بندقيته كالراعي المتوكئ على عصاهُ وقد اطلق لعينيه الزرقاوين عنان التفرّس في ظلمة الليل المدلهمة وافكارهُ سابحة في فضاء الرؤى والاحلام . وكان ندف الثلج يتطاير حولهُ ويتجمع على اطراف ثيابهِ ويتساقط حتى على اهداب اجفانهِ الطويلة . ولهذا كان يرفع يدهُ من وقت الى آخر على صفحة وجههِ — لينفض سقاط الثلج عن عينيهِ . وكان اسمهُ باسيل

فقال لهُ واحدٌ من الكهول متبرّماً متذمراً ، واسمهُ اندريا سكرتو وهو ضابط السرية « انظر يا باسيل الى النار فانها تكاد تنطفئ . ولسوف يهرأنا البرد قبل انقضاء هذه الليلة الملعونة ! »

فاعترض جنديٌّ آخر متململاً : — « كان من الواجب علينا ان نحترز حتى لا نضلّ الطريق » فاجابهُ الضابط : « قدّر فكان . ولا فائدة من الاعتراض . فإن هرأنا البرد وقضي علينا قبل الصباح ذهبنا كما ذهب كثيرون غيرنا »

فسأل واحد منهم : — « على من تبعة هذه الشرور الفظيعة ؟

فرد عليهِ الضابط سكرتو مقطّباً : « ان سؤالا كهذا ليس من شأنك ولا من شأني انا ايضاً » وقال جنديٌّ لم يتكلم قبل الآن واسمهُ بطرس ياسكا : « ان تبعة هذه الشرور على الحرب . فهي وحدها مسؤولة عنها »

وصاح سكرتو صيحة المغيظ المحنق : « الحرب الحرب ! تنقضُّ على الناس انقضاض هواجر الصيف او سيول الشتاء على البزور الغضة الطرية فتحرقها او تغرقها »

وقال غيرهُ : « ولكن هذه الحرب منقطعة النظير في نظائمها واهوالها ! »

فالتفت باسيل نحوهم وقال : « اني آسف على حالة هؤلاء الاسرى »

فصاح معظم الباقين بصوت واحد محتجين ومعترضين : « آسف ! على من انت آسف ؟ على هؤلاء الغرباء الاعجاس المتاكيد ؟ » فاوضح باسيل مرادهُ بقولهِ : « اني آسف عليهم لانهم في ريعان الصبا يشكون تباريح الغربة وفرقة الانسباء والاحبّاء »

« ونحن ؟ أنسنا مثلهم ؟ »

« نحن على الاقلّ باقون في وطننا رومانيا ! »

ثم عصفت ريح شديدة مثقلة بكسف الثلج. فأداروا وجوههم وولّوها ظهورهم. وقال واحد منهم : « انها ليلة ليلاء محفوفة بصنوف الشرّ والبلاء »

قال الضابط سكرتو : « قلتُ لك يا باسيل واقول ايضاً إن لم تمشنا بشيء من الوقود هرأ البرد جلودنا واخذ انفاسنا » . فاجابهُ باسيل وهو لا يزال مشغولاً بدقيقتهُ كحصا الراعي : « كيف يمكنني العثور على الوقود في هذا القفر الموحش المظلم ؟ » فردّ عليهِ بطرس باسكا قائلاً : « لك ساقان من حديد ولا يعوزك العثور على الوقود سوى ان تعزم وتريد » ووافقهُ سكرتو على ذلك فقال : « نعم . نعم . انك كما قال باسكا . فاطلق ساقيك للريح وفتش لنا عن قليل من الحطب نوقد بنارهِ الطب »

فاعترض باسيل وهو يدقّ إحدى قدميهِ بالاخرى غير متزحزح عن موقفهِ : « ولكنّ العمل المنوط بي انما هو حراسة الاسرى »

فصاح بهِ سكرتو : « ان حراستهم يستطيعها دونهن الرجال ساعداً واوهاهم عزمة . ولا تنس ان لي الأمر وعليك الطاعة والامتثال . فاعمل بندقيّتك على كتفك وعجّل في البحث عن وقود لا يهمنا مقدارهُ قلّ أو كثر : فالكثير خير من القليل ولكنّ القليل خير من العدم »

فقال باسيل : « سمعاً وطاعة » ثم حمل بندقيّتهُ وأخذ يجدّ السرى ويطأ صفيح الثلج مستغرباً لا يدري اين يذهب ومن أين لهُ ان يدري والليل مشتدّ الحلك والسهل امامهُ واسع الانحاء منبسط الارجاء وهو جديب أجرد لا شجر فيهِ ولا نبات

وفي أثناء سراهُ مختزقاً حُجُب الغسق ومتعثراً بالثلوج المتكاثفة تنازعتهُ افكار كثيرة متعارضة متناقضة ولكنها كانت افكاراً . وعرضت لهُ عدّة رؤى شائقة سارّة — رؤى حبّ وهيام لا علاقة لها بصبارة الزمهرير ولا بنار الحرب المستعرة . بهذه الافكار والرؤى استأنس في وحشتهِ وشحذ غرار عزيمتهِ واستعان على تذليل ما في طريقهِ من المشقات الى ان عثر بشيء فأكبّ على وجههِ . ولشدة كثافة الثلج نهض

سليماً من الاذى . لكنّ سقوطهُ هذا روّع الرؤي فانثر عقدها وتفرّق شملها

وأفاق باسيل من ذهوله فرأى نفسهُ وحيداً لا يقع نظره الا على بقع الثلج ولا يطرق سمعهُ غير قصف المدافع . فقال متأسّفاً متبرّماً : « الحطب — الحطب ! أمرتُ بان احتطب لهم ولو كُسَاراً او هشيماً يلقونهُ على نارهم الخامدة ولكن أنّى لي الاحتطاب في هذا القفر اليباب الخالي حتى من ادق الاخشاب ؟ آه يا الهي ما هذه الليلة ! حقًّا انها شرُّ الليالي . وفي جسدي من ريحها الصرصرّ وقع السياط وفي وجهي من ندف ثلجها وخز الابر ؟ فأين — يا ربي — اين اجد الحطب ؟ »

قال هذا ووقف يكزُّ ويتقفقف من شدة البرد ويضرب جنبيهِ بيديهِ المرتعدتين. وكان في اثناء سراهُ على غير هدًى قد ضلّ الطريق . فلم يستطع ان يتبين شيئاً امامهُ سوى أكوام متبعثرة وقّ الثلج فوقها فانحسر عنها . هنا رجمة (قبر) وهناك جثة حصان وهنالك بعرمة هشيم بالٍ . واذ التفت حولهُ وامعن في التفرّس والتحديق لاح لهُ عن بعد خط اسود عرف انهُ الطريق العامّ الذى كان قد ضلّ عنهُ . ومن فوره وجّه خطواته نحوهُ . وكانت الارض وعثة متوعرة وقد برّح به العناء وقرّس البرد اصابع يديهِ ورجليهِ . واذا به وقف مشدوهاً مذعوراً ، إذ شخَصَ أمامهُ ثلاثة اشباح ناحلة مهزولة ، قائمة بعضها بجانب بعض وبارزة من خلال الديجور !

فاضطربت افكارهُ واشتدّ خفقان قلبهِ وعرتهُ قشعريرة خوفٍ وجّت اعضاءهُ كلَّها . فما هذا الذي رآهُ بل ما هذه الليلة الحافلة بصنوف المزعجات والمفزعات ! ولكن لماذا يخاف ؟ هب ما رآهُ كان خيالاً او روحاً فالأخيلة والأرواح أيسر خطباً من ملاقاة ألمانيّ !

بمثل هذا الاعتبار سكّن باسيل جأشهُ وحوّل سراهُ نحو الاشباح الثلاثة التي وقفت لا تبدي حراكاً منتظرة وصولهُ اليها . وعند وصولهِ لظر فاذا هي ثلثة صلبان ! ثلثة صلبان من خشب منصوبة على ثلثة قبور مهجورة وقد عبثت بها عاصفات الرياح وابلاها كرُّ الجديدين حتى كادت تصبح أثراً بعد عين

فرسم صاحبنا إشارة الصليب ، مساقاً بالغريزة وقوة العادة وتلا صلاة قصيرة على ارواح هؤلاء الموتى ووقف ينظر الى الصلبان ويتأمّل في المدفونين تحتها سائلاً نفسهُ قبور من هذه يا ترى ؟ أقبور بعض الجنود هي ؟ أم قبور بعض النساء ؟ او لعلها قبور بعض الاولاد الصغار . . . . قبور اطفال ماتوا جوعاً وصرّداً

ثم تنبّه فجأة الى كون هذه الصلبان من خشب . . من خشب غليظ ثخين ! أو ليس هذا ضالتهُ المنشودة وغايتهُ المقصودة ؟ أفلم يقتحم حومة الظلام ويستهدف لخطر الموت برداً من أجل التفتيش عن الخشب او الحطب ؟

وقف باسيل امام الصلبان وقفة من يعثر على كنز ثمين ولا يجسر ان يمدَّ يدهُ اليهِ. فقد سحرهُ منظر الخشب ولكنهُ لم يجرؤ على لمسهِ ولا استطاع تركهُ والتخلي عنهُ واذ ذاك خطر ببالهِ فكر هائل او تجربة مخيفة تحدثتهُ بها نفسهُ قائلة لهُ :

لماذا لا تنتزع واحداً من هذه الصلبان وتمضي بهِ مسرعاً الى النار التي غادرتها على وشك الانطفاء فتحيي مواتها وتخرجها تنقذ الذين حولها من مخالب الردى ؟ فالموتى تحت هذه الصلبان في رقاد عميق لا يسعهم ان يسمعوا شيئاً مما يجري فوق رؤوسهم!

فتقدم بضع خطوات ووضع يدهُ على الصليب الاول . وبأسرع من وميض البرق اقشعرّ بدنهُ وطرأ على افكارهِ تغيير فجائي . فقبض يدهُ عن الصليب وقال لا ! إنَّ في عمل كهذا اتهاكاً فظيعاً لحرمة الموتى . واحترامهم مقدَّم على احترام الاحياء . واقلُّ عيب بكراستهم مكروهٌ في عيني الله والناس . وليس في وسع الموتى أن يحموا حرمتهم ويذودوا عن كرامتهم . فهم تحت رحمة كلّ من يمرُّ بهم — اذن يجب ان يكون للقبر من الاحترام ما لدرجات مذبح الكنيسة

على ان صوت التجربة عاد فرنَّ ثانية في اذنيهِ قائلا لهُ ان هؤلاء الموتى فارقوا دار الفناء الى دار البقاء واستراحوا من مكابدة العذاب ومساورة العناء والشقاء ولكنَّ هنالك رجالاً سوف يرأهم الزمهرير ان لم يقاتوا بوقود يصطلون بنارهِ . وهم رجال بأس اشداء يتفانون في خدمة الوطن . ومما لا ريب فيهِ ان الحيَّ افضل من الميت . وسلب الموتى اخفُّ جرماً من ترك الاحياء يموتون — اولئك الجنود البواسل حماة رومانيا ! ولو استطاع الموتى الكلام لصاحوا بصوت واحد قائلين خذ صلباننا كلها لتدفئة ذادة الوطن وحماتهِ وانقاذهم من الموت صرداً !

فامسك باسيل بالصليب وهزَّهُ هزة عنيفة محاولاً اقتلاعهُ من الارض المجلودة ... لكنهُ امتنع عليهِ متعصّباً كالشجرة المتأصلة او كمخلوق حيّ يذود عن حرمهِ . وهذه المقاومة أذكت نار الكفاح في قلب باسيل ومثلت لهُ الصليب خصماً عنيداً لا بدَّ من قهرهِ والتغلُّب عليهِ . فطوَّقهُ بذراعيهِ وشرع يرجّهُ جذباً ودفعاً ، باذلاً في هزّهِ وقلقلتهِ اقصى ما أُوتيهُ من قوّةٍ وصرامة حتى انتفخت اوداجهُ وتشنجت عضلاتهُ

وتفصّد بدنهُ عرقاً . وبعد صراع من دونهِ نضال الابطال سوى الصليب على اثر دفعة عنيفة بعد جذبة شديدة وخرّ مجندلاً وسقط باسيل فوق قرنهِ الشديد . ولم يكن قرنهُ هذا سوى صليب من خشب !

***

كانت النار قد خبت وصارت جمراتها رماداً . والاسرى وحرّاسهم جالسون حولها واجمين . وكانوا كلهم أسواء في معاناة جهد البلاء . وفيما هم على هذه الحالة وقد بلغت ارواحهم التراقي من شدة الكرب والضنك طرق آذانهم خفق نعل خفيف توقعوا منهُ قدوم طارق . وما عتموا ان رأوا باسيل مقبلاً عليهم يجرّ وراءهُ شيئاً ثقيلاً قاتماً

حطب ! حطب ! بهذه الكلمة ارتفعت الاصوات من حلقة الاسرى والجنود حول الرماد ونهض معظمهم يرحّبون باسيل ويشكرون لهُ سعيهُ . وهو صامت لا يفوهُ بكلمة . لانّ الشاء الذي تحمّلهُ بمكافحة الريح والثلج في اثناء رجوعهِ لم يكن اقلّ من عناء اقتلاع الصليب من مكانهِ . وعلاوة على هذا وذاك كان يعاني الم تبكيت النفس وتوبيخ الضمير . ولهذا وقف مطرقاً لا يئبس بموجاء ولا لوجاء واقتصر على القاء الصليب الثقيل عند اقدام اولئك المنتظرين

وكان سكرتو اول من عرف ماهية الوقود الذي جاءهم بهِ باسيل فتقزّز وتعوّذ وقال : — « صليب . . . . صليب ! »

وتقدم باقي الجنود ولظروا وضجوا باصوات الاستفظاع والاستهجان . ورفع الاسرى رؤوسهم ورمقوا الجنود الصاخبين باستياء وامتعاض . وظل باسيل ساكتاً وقد عقد الاعياء لسانهُ فخرّ على الثلج . والتفت اليهِ سكرتو وقال لهُ بلهجة الزاجر المنتهر:

« هذا صليب ! فكيف أقدمتَ على الإتيان بهِ ؟ »

فاعترض واحد منهم بقولهِ :

« لكنهُ من خشب ونحن في اشد احتياج الى الحطب »

« مهما يكن من نوعهِ ومن حالتنا فلا يمكننا ان نحرق صليباً ! »

« ان إحراقهُ انتهاك لحرمة مقدسة ! »

« وبجلبة لعنة الله علينا ! »

« ولعنة الموتى ايضاً ! »

« ولكننا نقاسي الأمرّين من قرس البرد . والموتى موتى . . »

« وهل ينتفع الموتى بشيء ان لقينا حتفنا من شدة الضرّ والقرّ ؟ »

« او لسنا حماة الوطن الذائدين عن ذمارهم ؟ »

« كم وكم في الارض من ميت ليس على قبره صليب ! »

« عار عليك ! فما من انسان يجسر على إحراق الصليب ! »

على هذا المنوال اخذ الجنود يتحاورون ويتجادلون . وباسيل والاسرى لاذنون باطراف الصمت لا ينطقون ببنت شفة : وكانت نفس باسيل مثقلة بأعباء العناء والاستحياء. ولكن عذره الوحيد انهُ لم يستطع ان يجد شيئاً آخر

وكان آخر ما قاله به الضابط سكرتو بلهجة الحزم قولهُ : « لا يطلنّ احد نفسهُ بالمحال . فموتا جميعاً مهروئين بالزمهرير اهون عليّ من إحراق صليب المسيح ! »

وكان قولهُ هذا فصل الخطاب وخاتمة الكلام . فاستعاد كلٌّ مجلسهُ حول الرماد البارد وخيم عليهم سكوت عميق وازال جهد البلاء كل فارق بين الاسرى وحرّاسهم فتساووا في تجشم المشاق وتجرع الغصص . وعلى بعد قليل منهم اضطجع باسيل مسنداً رأسهُ الى الصليب الذي كاد عناء المجيء بهِ من مكان سحيق . وطفق يتأمل في مشكلات الحياة

لماذا هذه الحرب الضروس الذاهبة بحياة الملايين من نخبة الشبان والمادة مطمار الدمار على كثير من البلدان ؟ لماذا هذه الآلام والتضحيات في هذه الحياة مع انهُ ليس من الصعب ان تقضى براحة وسلام ؟ لماذا هذا — لماذا ذاك ؟ لماذا هذه البغضاء والشحناء بين الامم وهم جميعهم ابناء آدم وحوّاء ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ . . . .

واشتد عليهِ هبوب الريح فرفع يدهُ المرتعدة من شدة البرد لينفض تار الثلج عن اجفانهِ واستأنف الإمعان في التأمل قائلاً لماذا تتعاقب الفصول ويأتي بعد حرّ الصيف القادح برد شتاء يسوم الابدان ما هو اشد من طعن السنان ؟ لماذا لماذا ؟

ثم جلس وقال لماذا هذا الظلام المطبق ؟ ماذا يراد بهِ ؟

وحينئذٍ ! عند ما نطقت شفتاهُ بالسؤال الاخير ابصرت عيناهُ نوراً ضعيفاً . فهل كان الفجر آخذاً في الطلوع ؟ راقب باسيل النور الذي خيّل اليهِ انهُ يراهُ بعيداً — فهل هو الفجر ؟ ولكنهُ لم يلتثم مع انهُ لاح متحركاً — نعم بدا متحركاً واخذ يدنو . . . ويقترب نحوهُ ! وبعد ذلك لما حاول باسيل في وضح النهار ان يقصّ ما رآهُ على رفقائهِ الذين كانوا نياماً لم يصدقوهُ . كان النوم ، في اثناء مشاهدتهِ لهذا النور ، آخذاً بمعاقد اجفانهِ ولكنهُ هو كان مستيقظاً ورأى النور بامّ عينيهِ . ومع ذلك تشبه

يوما تلميذ المسيح واراد ان يفسر يقدم يتحقق ما رآهُ بعينيهِ

وكان ما رآهُ باسيل شخصاً ابيض مقبلاً نحوهُ على الثلج . وكان ياضهُ شديد الصوع وعليهِ ثوبٌ من نور ساطع الضياء. وكان الشخص نفسهُ هو النور. ومع شدة تألقه ظلَّ الباقون غارقين في لجة الكرى. وهذا ما اعيا باسيل فهمهُ. تقدَّم نحو باسيل ساحباً وراءهُ ذيل لمعان يخطُّ سبيل الغمد . . وهذا الآتي كان ابن الانسان — كان ابن الله !

خرَّ باسيل على ركبتيهِ وكشف رأسهُ وبسط يديهِ . وقد نسي ما كان يعانيهِ من تباريح الشاء والبرد وانقشعت عن عينيهِ سُحُب الريب والشكوك . ولكن ما هذا الذي كان ابن الله يحملهُ على منكبهِ — شيء قاتم ثقيل كبير

كان صليبهُ ! المسيح ايضاً حاملٌ صليبهُ . فلماذا ؟ آه ! لماذا ؟

اقبل يطأ الثلج بخفةٍ ونشاط غير مبالٍ بثقل الصليب على كتفيهِ مع ان باسيل اختبر حملهُ ولا يزال يشعر بما لقيهُ منهُ

لم يقف حيث كان باسيل جاثياً بل اجتازهُ الى حلقة الاسرى والجنود النيام فدخل بينهم . ورآهُ باسيل بعينيهِ يلقي صليبهُ على الرماد وابصر لهباً يندرى ، وتندفع ألسنتهُ حول الصليب حتى صار الصليب نفسهُ ناراً حامية شديدة الاشتعال ! فالمسيح جاء بصليبهِ وجعلهُ وقوداً لنار يصطلي بها حماة الوطن البواسل وينجون من الموت !

وبعد ذلك تذكر باسيل ما حدث ولكن بشيء من الغموض والابهام . فزحف على ركبتيهِ نحو اللهب المقدس . . . . وبجانبهِ سقط مغشيًّا عليهِ

ثم طلع النهار . واستيقظ النيام واحداً بعد واحد واذا بالنار ، التي كانت قد خبت وصارت الى الخمود منذ اوائل الليل ، تتقد الآن بلهب شديد الحمو احيا قواهم وغادر البرد اثراً بعد عين . وتحقق كلٌّ منهم ان امراً عجباً حدث لكنهم لم يدلوا بما هو

وهذا الامر راب الضابط سكرتو. فقال في نفسهِ لعل باسيل عصى اوامرهُ واحرق الصليب . ولكنَّ ذلك الصليب باقٍ ملقى حيث كان . وباسيل جاثٍ بجانبهِ ويداهُ على صدرهِ وعيناهُ ناظرتان الى الشمس الطالعة . فذهب اليهِ وناداهُ قائلا :

« باسيل ! باسيل ! ماذا ترى في وجه الشمس الطالعة ؟ »

فالتفت باسيل اليهِ وعيناهُ ساطعتان بنور عجيب . لكنهُ لم يجبهُ عن سؤالهِ . ولم يعلم سكرتو قط اية رؤيا كان باسيل يتمثلها في محيَّا الشمس الطالعة

ترجمة : اسعد خليل داغر